مقدمة

من الحقائق الفلسفية التي انتقلت من مجال الفلسفة المحترفة إلى الكثرة الغالبة من عامة الناس ثلاث حقائق. فأما أولاها فهي أن الإنسان كائن عاقل، أو قل مع أرسطو إنه حيوان ناطق؛ وأما الثانية فهي أنه كائن باحث عن الحقيقة، أو قل مع أرسطو أيضًا إن الإنسان بطبعه مشوق للمعرفة؛ وأما الثالثة فهي أن الإنسان يعتمد في كل فاعلياته على الرمز، أو قل مع إرنست كاسيرر إن الإنسان حيوان رامز.

على أن الشيء الخليق بالملاحظة هو أن هذه الحقائق متداخلة وليست متخارجة. وسواء فهمنا العقل على أنه العقل الوازع الذي يمنع الإنسان عن المنكر، أم العقل المدرك الذي ينشئ التصورات الكلية، ثم يربطها في قضايا، ثم يستدل قضايا أخرى من هذه القضايا، أم العقل الرشيد الذي يكسب صاحبة حكمة ورشدًا، فإن اجتماع هذه السمات في الإنسان تجعله كائنًا متميزًا عن بقية الكائنات. وقد يختلف الفلاسفة في تحليل هذا العقل فيردوه تارة إلى انطباعات حسية كما يفعل التجريبيون، أو يردوه تارة أخرى إلى مبادئ أولية ومقولات فطرية كما يفعل العقليون أو المثاليون.

وعندما يمتاز الإنسان بالعقل على هذا النحو، فإنه يغامر بالبحث عن الحقيقة وينتج المعارف المتمثلة في العلوم والفنون والحضارة. وهو لا ينتج هذه المعارف إلا إذا كان كائنًا مريدًا يصدر فيما يبدع عن إرادة حرة. وتعتمد هذه الإرادة المبدعة على قدرة الإنسان على الرمز. والشيء المحقق أن أبرز الوسائل الرمزية لدى الإنسان هي اللغة. واللغة علامات ورموز. واللغة عند كثير من الفلاسفة والعقليين خاصة هي خصيصة إنسانية فريدة. وأخص ما تمتاز به اللغة هو الجانب القصدي من وراء الرمز.

والشغل الشاغل للفلسفة المعاصرة هو دراسة هذا الرمز اللغوي حتى نظر إليها الفلاسفة على أنها قصة لنظرية المعنى.

أرأيت كيف تأتلف سمات الإنسان في نسيج واحد، فهو حيوان ناطق عاقل، وباحث عن الحقيقة ومبدع للمعرفة بإرادته، ويستعمل الرمز اللغوي للتعبير عن هذه المعرفة. ولئن تفرقت زوايا النظر في فصول هذا الكتاب، فإنها تلتقي عند هدف رئيس هو التحليل الفلسفي للمعرفة، ومحاولة الإجابة عن سؤال أساسي: كيف يعرف الإنسان ما يعرفه عن نفسه أو عن العالم أو عن الله؟

ما الجديد في فلسفة المعرفة المعاصرة؟ الجواب عن هذا السؤال تجده في الفصلين الأولين: «إبستمولوجيا الفضيلة» و«الإبستمولوجيا الاجتماعية». إبستمولوجيا الفضيلة هي محاولة لاستكشاف الفضائل العقلية والبحث في الطريقة التي تشكل بها معالجتنا لمسائل المعرفة. ظهرت فكرة الفضيلة العقلية لأول مرة في مقال سوسا «الطوافة والهرم» 1980، وانتهى فيه إلى نتيجة مفادها أن فكرة الفضيلة العقلية ربما تساعدنا في حل النزاع بين نزعة الأسس ونزعة الاتساق، بالإضافة إلى فائدتها في التربية والتكوين الفكري بصفة عامة.

قدمت نظرية المعرفة التقليدية النزعة الفردية في صورتين. فأما أولاهما فهي أنها جعلت الفرد مركزًا للبحث، وتناولت الفرد بمعزل عن محيطه الاجتماعي، ونظرت إليه بوصفه عارفًا مستقلًا. وأما ثانيتهما فهي افتراضها أن الفرد هو موضع الخصائص المعرفية مثل الاعتقاد، وأن الاختبار النهائي لليقين لا بد من أن يوجد في الوعي الفردي. وجاءت الإبستمولوجيا الاجتماعية لترفض الصورة الأولى من الفردية وتؤكد على الأبعاد الاجتماعية للمعرفة. ثم جاءت إبستمولوجيا الجماعات كرد فعل على الصورة الثانية من الفردية المعرفية.

يعج عصرنا بنتائج العلم وتطبيقاته التقنية، ومهمة الفلسفة هي أن تفهم هذه المعرفة العلمية، وما يترتب عليها من تكنولوجيا. فماذا صنع الفلاسفة في سبيل تحليل هذه المعرفة؟ وكيف نميز المعرفة العلمية عن غيرها من المعارف؟ وكيف نميز العلم من العلم الزائف؟ جواب مثل هذه الأسئلة تجده في الفصل الثالث (المعرفة العلمية).

ولكن انتبه إلى أن النزعة العلمية في الفكر الغربي غالبًا ما تأتي في صورة متطرفة. وأحد مظاهر هذا التطرف هو أنها تسلك الإنسان مع الطبيعة في عقد واحد، وتجعله ظاهرة تخضع للبحث العلمي مثل سائر الظواهر الطبيعية، وتجعل (العقل) وظيفة عضوية مثل سائر الوظائف التي تؤديها أعضاء الجسم. وخطورة تطبيع العقل على هذا النحو هي إنكار خلود النفس وإنكار ما بعد الموت. ولذلك تراني أدافع عما أسميه النزعة العلمية المعتدلة.

ما العلاقة بين الفلسفة والعلم؟ وهل صحيح أن الفلسفة لا تفيد العلم بأي شيء أم أنها ضرورية له؟ وإذا كانت ضرورية، فما عسى أن تكون صورة التعاون بين الفلسفة والعلم؟ ما فلسفة التكنولوجيا؟ وما موضوعاتها الأساسية؟ وما مراحل التكنولوجيا، وعلاقة التكنولوجيا بالعلم؟ وما موقف الفلاسفة من التكنولوجيا؟ وما عسى أن تكون صورة التكنولوجيا في المستقبل؟ تجد الإجابة عن هذه الأسئلة وما يدور في فلكها في الفصل الرابع.

كيف نعرف معاني ألفاظ النوع الطبيعي، مثل «ماء»، هل هي في الرأس أم في العالم؟ هذا السؤال يصور الخلاف بين فريقين من الفلاسفة هم أصحاب النزعة الداخلية وأصحاب النزعة الخارجية. يقول الداخليون إن المعنى يتحدد كلية عن طريق جوانب داخلية للمتكلم، وشعارهم هو «المعاني توجد في الرأس أو المخ». ويقول الخارجيون إن المعنى يتحدد في جانب منه عن طريق جوانب خارجية للمتكلم، وشعارهم هو «المعاني لا توجد في الرأس فقط». يناقش الفصل الخامس هذا الخلاف، ويبين حجج الفريقين، ويوضح الطريق إلى معرفة المعنى.

ويأتي الفصل السادس والأخير ليحلل المعرفة المثالية كما تصورها أحلام العقلاء فيما يعرف بالمدينة الفاضلة (اليوتوبيا). وسواء أكانت اليوتوبيا اجتماعية أم علمية، فإنها تمثل طموح الإنسان إلى حياة أفضل، ورغبته في بلوغ السعادة عن طريق العدالة تارة كما هو الحال في جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة للفارابي ويوتوبيا توماس مور، أو بلوغ السعادة عن طريق العلم تارة أخرى كما هو الحال في أطلنطس الجديدة عند فرانسيس بيكون ووالدين تو عند سكنر.

وأحسبك ستوافقني على أن فلسفة المعرفة من أكثر مجالات الفلسفة الخليقة بالمتابعة والنظر. فهي أشد هذه المجالات اتصالًا بالعقول، وتأثيرًا في القلوب والنفوس، وهي التي تزودنا بتوضيح مفهومي للمعرفة وعناصرها مثل الاعتقاد والصدق والتسويغ، وتوضيح معرفي للعلم ومفاهيمه مثل الوقائع والتجارب والفروض والنظريات. ومن دونها لا ندرك التمييز بين المعرفة والرأي والظن، ولا نجد طريقة منهجية لتمييز العلم من العلم الزائف.

وتكسبنا فلسفة المعرفة فهمًا دقيقًا لفضائل العقل، وهي صفات أو قدرات شخصية عميقة مطلوبة للتفكير والتعلم الجيد، مثل الفطنة، والتعقل، والإخلاص، والاجتهاد، والتواضع العقلي، وسماحة النفس، والاستقلال، وحب الاستطلاع، والانتباه، والإنصاف، والانفتاح العقلي، والعناية الفكرية، والمثابرة، والحذر، والدقة، وهَلُمَّ جَرًّا. وتنبهنا فلسفة المعرفة إلى رذائل العقل وهي سمات شخصية أو أساليب تفكير تعوَّق البحث وتجعلنا أقل فاعلية في تحصيل المعرفة، مثل الجهل، والتزمت الفكري، والتحيز، والكبرياء الفكري، والتهاون، والكسل، والسذاجة، والتفكير بالتمني، وعدم الإحساس بالتفاصيل، والبلادة، وعدم الدقة، والإهمال، والعُجْب، ونحو ذلك.

وأشكر القائمين على مركز نماء على حسن اهتمامهم بأعمالي، وخاصة الأستاذ محمد عمران مدير مركز نماء. وكلي أمل أن يجد القراء في هذا الكتاب ما يتوقعونه من متعة عقلية، وفائدة علمية، ودقة منهجية؛ وأن يجد شباب الباحثين فيه فرصة للتعمق في الموضوعات التي يعالجها، والتوسع في الموضوعات الأخرى التي يمهد الطريق إليها. ولا يفوتني أن أزجي تحية مودة إلى طلابي في جامعة القاهرة، وإلى الذين كانوا طلابي في جامعة الإمارات العربية المتحدة في الفترة ما بين 1998 و2001 وخاصة الأستاذة فاطمة الزعابي. وأسأل الله أن يبارك في هذا العمل وينفع به، وهو سبحانه من وراء القصد.

مدينة 6 أكتوبر 10 ذو الحجة 1445هـ / 16 يونيو 2024م صلاح إسماعيل